

النقد والتأليف

اعجاز القرآن

والبلاغة النبوية

بقلم مصطفى الرافعي (الطبعة الثالثة) في ٤٥١ صفحة من القطع الكبير حسن الطبع والورق (مطبعة المقتطف والمقطم بمصر) — وعلى غلاف هذه الطبعة ما يأتي :
« أمر بهذه الطبعة علي نفقته حضرة مولانا ملجأ الاسلام والمسلمين وحامي العلم والفضيلة والدين صاحب الجلالة ملك مصر (أحمد فؤاد الاول) عز نصره »

على الرغم مني ما اكتب في هذا البحث وعلى الضد من ارادتي ما احاول أن استعرض اليوم مجمل ما يقوم في نفسى من أثر المعجزة والمعجزات. غير انى مسوق الى هذا بحكم الضرورة وبحكم ما يقوم في نفسى من نزعة الى التفكير الحر والنقد الذى لم يفلت منه شئ في هذا الوجود. قال « ادوارد كيرد » في مقدمة كتابه في « فاسفة كانت » ما يلى :

« ان العصر الحديث هو عصر النقد. النقد الذى اضطر كل شئ الى الخضوع له خضوعا غير محدود بحد ولا معرف بتعريف. فالدين ، مستويا على عرش القداسة ، والقانون ، قائما على ما يحف به من عظمة ، قد حاولا مرارا عديدة أن يفلتا من حكم النقد ، وكان عبثا ما حاولا . غير أن محاولتهما الافلات من النقد قد بثت في الناس فكرة الشك في صحة القواعد التى يقومان عليها ، وأفقدتهما النتائج التى تترتب على ما يحبو النقد الحر بقية فروع المعرفة الانسانية من تمحيص ونزول على حكم العقل الصرف »

على اننا لم نعتد بعد أن نتقبل النقد البرىء في مجال أقل من مجال الدين احتكاكا كالشاعر وأظهرنا البغض حيننا والنفور حيناً آخر. فما بالاك في نقد يتناول الاعجاز والمعجزات ، وهي على بعدها عن أحكام العقل الاولى ، وعلى اعتبارها ، في نظرى على الأقل ، من أبعد الاشياء تأييدا للاديان ولفكرة الدين وأقربها إلى منازعة العلم الحديث سلطانه الذى لا يرد وسلطته التى لا تمحى ، لا تتجاوز حدانها اخباريات

لا بد من أن نخضع للنقد ، أو مسائل نسبية طبعها لطابع الاعجاز تأييداً للدين ؟
وما ذلك من الدين في كثير ولا قليل . على أنه رغما عن كل هذا أمضى في نقدي
ثابت القدم راسخ اليقين في نبالة قصدي وفي جلال الفكرة التي أدافع عنها .



الموضوع مشعب النواحي فأنض الجوانب والفكرات ، متكاثرة وعلى الاختص
اذ أخذتني بحشها من ناحيه التاريخ . فالثك في حقيقة المعجزات من أخص الاشياء
التي غزت الفكر الانساني منذ أبعد العصور . وكانت سلطة الكنيسة في المصور
الوسطى حائلا كبيرا وسداً منيعاً وقف بالمقول دون النقد الحرقرونأ متواليه غير أن
العالم لم يابث أن يستقوى على سلطان الكنائس خلال اقرن السابع عشر حتى بدأ
الناس يفكرون في أوائل القرن الثامن عشر في المعجزات ويشكون فيها ، لا في
امكان حدوثها فقط ، بل في امكان قبولها عقلاً . وقامت معركة في انجلترا تلتها أخرى
في فرنسا ، وكان الديستيون في انجلترا حماة الاولى ، والانسيكالويديون في فرنسا حماة
الثانية . وعلى الرغم مما كان في ابحاث الانجليز من نقص ، وعلى ما كان في أقوال
الفرنسيين من تطرف ، فإن المعركة قد ربحها العلم وخسرتها المعجزات .

على انني لا أريد اليوم أن افتح هذا الباب فمن ورائه تيه بعيد المدى قصي
المجال قد يضل فيه العقل والمعجزات مما وقد لا يقعا على نتائج يصح السكون اليها ،
وعلى الاختص في دور انقلابي كاللور الذي تجتازه عقليتنا وقد تمخا لطفيها كثير من
الاهام بقليل من الحقائق ، فكان من ذلك تركيب مزجي تسودت فيه مختلف النزعات
النفسية ، وترك العقل نسياً حتى حين .

لهذا نريد أن نحصر النقد في موضوعات خمس نتناولها بالبحث ونخصصها بالنقد
لنستطيع على الاقل أن نخلص بنتيجة يصح السكون اليها . ونترك في هذا البحث
كل ما لا يمكن تحديده كالبحث في وقوع المعجزات التي ترويهها الاديان بالفعل
ونصيب صحتها من التاريخ والنقل الى غير ذلك من الابحاث التي لا يمكن تحديدها
والتي يضرب فيها العقل والخيال مزوجين بآثار المشاعر ضرباً تفضل فيه عقول ذوي
العقول . أما موضوعاتنا فهي :

أولاً — هل المعجزة ضرورية لقيام الأديان إطلاقاً

ثانياً — الإعجاز المطلق

ثالثاً — الإعجاز من ناحية اللغة

رابعاً — الإعجاز من ناحية العلم

خامساً — الإعجاز النسبي

أولاً — ضرورة المعجزات للأديان

اقترن قيام الأديان العظمى بروايات مختلفة في الإعجاز قيل بأنها كانت أفعال في نفوس الناس من أحكام الدين نفسه ومن إرشاداته ومبادئه العليا . فانشقاق البحر وأحياء الموتى وشفاء الأكه والأبرص وانشقاق القمر وانبجاس الماء من الحجر ونزول مائدة من السماء ، كل هذه الأشياء اقترنت بنشوء الأديان العظمى . على أن الأديان القديمة لها معجزاتها ولها رواياتها المختلفة . قديان الهند القديمة وبابل وأشور وفينيقية ومصر لها معجزاتها ولها خيالياتها ومثالياتها . إذن قديان الأرض كتابية وغير كتابية قد اشتركت جماعها في رواية المعجزات وقرنت وجودها بأمثال هذه الروايات التي لا يقبلها العقل في بعض جهاتها ، وهي داخلة في حد الامكان في جهات أخرى . فهل شفاء الأكه والأبرص معجزة في الوقت الحاضر ؟ وإذا كان هذا يعد معجزة فماذا يكون الحكم في شفاء المجذوم والمسلول وتحريك القلب الإنساني وإعادة الحياة إلى الجسم بعد أن تأخذه سكرة الموت الرهيب ؟ أهى معجزات أم يمكنت ؟ هي ممكنات نخرجها من حيز المعجزات مادام في استطاعة كل إنسان إذا عرف أسرارها أن يأتي بها .

على أن شيوع المعجزات في الروايات التي تروىها كل الأديان العظمى ومنها الأديان غير الكتابية ، من أكبر الأشياء التي تجعلنا نشك في صحتها جميعاً . فإذا أذكرنا على الأديان غير الكتابية معجزاتها فأى شيء يصدأهل هذه الأديان عن أن تنكر معجزاتها ، والموضوع واحد وأنبيأؤهم من حيث القداسة في نظرهم لا ينزلون عندهم عن أنبيأئنا عندنا ؟

ولديك مسألة أخرى . هى مسألة التشابه بين بعض المعجزات التي روتها أديان

غير كتابية ومعجزات روتها الاديان الكتابية . فاهل الهند ينسبون الى أحد أنبيائهم ويسمى « كريشنا » معجزات حوطت مولده شبيهة بالمعجزات التي تروى عن مولد عيسى حرفا بحرف . فهل يمكن أن يكون منشأ هذه الروايات واحد وأن النصراني تقديساً لذاتية عيسى قد انتحلوا هذه الروايات انتحالاً ، ثم وهموا أنها صحيحة فثبتت في أصول الدين النصراني ؟ وهلا يمكن أن تكون كل المعجزات قد نشأت من طريق كهذه الطريق أو مشابهة له على الأقل ؟ وهذه الفكرة على الرغم من أنها تدخل في حدود الامكان ، فان لها من التاريخ اصدق الشواهد .

بعد هذا نتساءل : ماهي العلاقة بين الدين والمعجزة ؟ ولماذا لا يكون دين بغير معجزات ؟ وهل قيام الاديان مشروط على معجزات ؟

لا أستطيع مطلقاً أن أسلم بهذا . لان الدين في أصله عبارة عن تحديد للعلاقة التي يتوهمها الانسان قائمة بينه وبين الله . فأى شأن لتدخل المعجزة في هذا ؟

على أن حدوث المعجزة ذاتها أو على الأقل ضرورة الالتجاء الى معجزة ليكون الدين مقبولاً عند الناس فيه دليل أولى على أن فكرة الدين بعيدة عن نفوس الناس وأن الدين انما يلجأ الى قسر المعجزة ليلزم الناس الفكرة الزاماً آتياً من ناحية السلطة وحدها لا من ناحية الاقتناع بصحة الشيء في ذاته . ذلك لان حدوث المعجزة او الالتجاء الى احداث معجزة فيه دليل أولى على أن الناس قد كرهوا الدين وان الدين عجز عن اقناعهم من طريق العقل فاجأ الى نظام الطبيعة يخرق منه ما رأيت يد القدرة العلوية ليقول للناس « هوذا دليل على صدق ما أتيت به » .

على أن الدليل منقوص والحجة غير ناهضة . لان لجوء الاديان الى المعجزة كلجوء المستبدين الى السلطة ؛ كلاهما امر لا يدل على صحة الفعل أو الفكرة في ذاتها . لهذا يجب أن نمحو فكرة أن المعجزة ضرورية لقيام الاديان من ناحية التدليل . أما من ناحية السلطة فضرورية اذا كانت ممكنة . ولكن ضرورتها لا تبطل للدين من روعة الاقتناع العقلي مالا يجب أن يقوم دين على سواه .

ثانياً — الاعجاز المطلق

ما هو الاعجاز المطلق ؟ هو أن تشق القبر نصيفين يستوي أحدهما على جبل

والآخر في سهل ؟ هو أن تجعل الشمس تشرق من المغرب ؟ هو أن يحيي الموتى بعد أن
يوتوا ؟ وعلى الجملة هو أن تخرق نظام الطبيعة القائم على تلك النواميس
السرمدية الابدية .

والكلام في هذا الموضوع وجهان . الاول فلسفي صرف . والآخر علمي .
فنتكلم أولاً من ناحية الفلسفة .

يقولون بأن الله مخالف للحوادث وأنه قديم وإن علمه قديم . وإن العلم القديم
لا يمكن أن يتغير . لأنه إذا تغير أصبح مشاركاً للحوادث في علمها بالاشياء . فلا
شبهة مع هذا مطلقاً في أن نظام الكون قديم لأنه قائم على علم الله به . وهذا العلم
لا يتغير لافي الزمان ولا في المكان . واذن يكون النظام أبدي سرمدى لأن هذه
الصفات من لوازم العلم القديم الذي يتعلق به وجود الاشياء . واذن نعتقد أن
الاعجاز المطلق مستحيل لأنه مخالف لعلمه القديم منافي لنظام الكون الذي سبق
في علمه أن يكون على ماهو ، وأنه سيظل كما كان وكما هو ذئن وكما سيكون ، خاضعاً
للواميس التي اختصت بها المادة والقوة وتعلق بها علمه القديم . ولهذا يجب أن
نرفض فكرة الاعجاز المطلق رفضاً تاماً من ناحية الفلسفة ومن ناحية الدين نفسه .
لأننا اذا لم نرفضها لم نجد بداً من أن نسلم بأن علم الله متغير ، وكل متغير حادث
كما يقولون .

أما من ناحية العلم الطبيعي فلا حاجة بنا إلى سرد الأدلة والبراهين بعد أن
أثبت العلم أن للمادة والقوة قوانين تربطها ونواميس تحكمها وأن كل ما يرى في
الكون من الصور نتيجة لتفاعل المادة والقوة في خضوعها لهذه النواميس . وأن
هذه النواميس تجري على قاعدة من الدقة عجزت كل الآلات التي اخترعها
الإنسان عن أن تبلغ إلى جزء من دقتها . ناهيك بأن النظام شبكة متخالطة
الخيوط وأن اختلال ناحية من نواحيها يفسد لها في مجموعها . فلم يختل سير القمر
حول الأرض قيد أنملة واحدة اختل النظام الشمسي كله وربما حلت بالكون
كارثة لا تقدر مداها . ولهذا يجب أن نرفض فكرة الاعجاز المطلق من ناحية
العلم رفضاً باتاً صريحاً

ناهيك بأن العقل الانساني ، وعلى الاخص في كل أدواره اللاهوتية الاخيرة ، قد سلم بأن القدرة لا تتعلق الا بالممكنات . وما الممكنات عندي الا كل ماهو داخل تحت سلطان النواميس الطبيعية . ولست أدري كيف يملقون القدرة على الممكنات أزاء الله ، ثم يملقونها على المستحيلات أزاء الانبياء ؟
 هذه إحدى نزعات العقل الانسابي . يكفر بالحق . ثم يتلمس أسباباً لكفرانه ، ثم يدخل في دور الاعتقاد بما كفر به . فاذا ثبت اعتقاده فلا مزعرع له من شيء إلا ثورة فكرية تحطم مابنى من أوهام على مر العصور .

ثالثاً — الاعجاز من ناحية اللغة

ليس الاعجاز من ناحية اللغة بداخل في منطقة الاعجاز المطلق . والا لرفضنا أيضاً . فالاعجاز لغة وأسلوباً وبلاغة نسبي غير مطلق . فالقرآن معجز للعرب ولاهل العربية . ولكننا لانستطيع مطلقاً أن نقول بأنه معجز لمن يتكلمون غير العربية من اللغات . معجز على نفس القاعدة التي تجعلنا نعتقد أن « الفردوس المفقود » للثمن معجز لاهل الانجليزية ، وأن إلياذة هوميروس معجزة لاهل اليونانية وأن الكوميديا المقدسة لدانتى معجزة لاهل اللاتينية . وكما نقول بأن القرآن غير معجز لاهل هذه اللغات ، نستطيع أن نقول بأن « الفردوس المفقود » والاياذة والكوميديا غير معجزة لاهل العربية . لان الاعجاز من هذه الناحية يجب أن يكون في ضلله الشيء ومن طبيعته .

وكما أن اعجاز القرآن نسبي بالقياس على ما قال العرب وما ضربوا فيه من فنون البلاغة والالهي ، كذلك تجد أن فردوس دانتى معجز لاهل الانجليزية . وعلى هذا ففس كل ضروب الكلام .

وللاعجاز النسبي طرفان . طرف بالغ منتهى الجودة . وطرف بالغ منتهى القبح . فكما أن القرآن معجز من الناحية الاولى لكل ماهو دونه ، كذلك نقول فهاه « باقل » أو ركاكة الجوهري معجزة لكل ماهو فوقها .

على انك في الاعجاز النسبي حري أن تقول ماشئت ، وأن تطالب فيه بما تشاء . أما اذا اجتزت هذه العقبة لتدخل الى الاعجاز المطلق فانك لست ببحر ،

لأنك هنالك تواجه النظام الطبيعي الأبدى القائم على العالم القديم بما سوف يكون الكون ونظامه ، كالحق في ثباته وقوته ، يرد تخيلاتك اليك حذيرة كلية .

على أن الاعجاز النسبي من ناحية اللغة قائم على الأوضاع الانسانية . فاعجاز القرآن بلاغة قائم على الأوضاع التي اصطلح عليها العرب أنها بلاغة . وكذلك اعجاز فردوس ملتن قائم على أوضاع الانجليزية واللياذة على أوضاع اليونانية والكوميديا على أوضاع اللاتينية . فإذا اعتقدنا بغير هذا وقفنا على عتبة الباب الموصود باب الاعجاز المطلق ، لنظل هنالك الى آخر الدهور لانستطيع التقدم خطوة واحدة . فإذا تراجعنا قائمًا نكون قد رجعنا الى شيء من الحق ودخنا المنطقة التي يصح أن تتفاضل فيها الأوضاع الانسانية .

رابعاً — الاعجاز من ناحية العلم

كذلك لاعتقد أن الأديان جماعها قد أعجرت من ناحية العلم . فكل الأشياء الدمانية التي تعرضت لها الأديان الكتابية قد جرت فيها على ما كتبت من الأديان غير الكتابية من الحوادث والاخباريات والتعاليم ، حتى لقد تساوت كل الأديان منذ العصر البابلي وما قبله في الاعتقاد بأن السماء قباء عظيم وأن من فوقها بحر متلاطم الأمواج وأن السماء زينت بمصابيح تخرن في النهار وتعاقد في الليل ، وعلى هذا لا نريد أن نتكلم في اعجاز العلم طويلاً لأن الأديان لم تعجز الناس من هذه الناحية لانسبياً ولا اطلاقاً .

خامساً — الاعجاز النسبي

وهذا هو حد الامكان قائماً على الأوضاع الانسانية . ولست أجد من سبب حتى الآن يحملني على أن أعتقد بغير هذا حتى لدى النظر في إعجاز القرآن . ومادام الاعجاز خارجاً عن حد الاطلاق مقيداً بما تواضع عليه الناس ، فلكل لغة معجزاتها الاسلوبية من غير أن يكون هذا الاعجاز فيها دينياً ، ومن غير أن يتقيد الدين فيها بالاعجاز .

اسماعيل مظهر